

التغيير . لكن جبرا ، لا يتحمله في كل شيء ، بل يترك الاحداث تتراكم لتؤدي بنفسها الى العودة الى هذا العامل .

العامل الثاني هو الثقافة . الثقافة هنا بمعناها الغربي الحديث . لكنها تتحول الى صيغة العلاقات الاجتماعية . فقدره جميل الفران على ترك حياة النزوح مرهونة بكونه درس دراسية عالية في انكلترا . وسيصبح استاذا في احدى كليات بغداد . وعلاقاته الاجتماعية في بغداد تتوزع في اتجاهين : اتجاه اساسي يتمثل في العلاقة مع سلمى الريبضي وعالمها الذي سح له بالوصول الى سلالة بصفته استاذا يعطيها دروسا خصوصية . هنا تبدأ العلاقة بالانعكاس الاجتماعي للثقافة ، سلمى مثقفة ، وسلافة تدرس الانكليزية . هذا الانعكاس هو الذي يلعب دور المفجر الرئيسي للعلاقات الاجتماعية . فمثال الثقافي العقلاني يفسخ العلاقات داخل الطبقة الاجتماعية ويؤثر الى انهيارها . كما انه يشير الى امكانية اخرى للنظر الى العلاقات الاجتماعية ، وللتعامل مع الزمن . ففي الحوار الذي يجريه جميل الفران مع توفيق نجل احد زعماء العشائر نكتشف الاصرار على التعامل مع الزمن بوصفه تحركا سريعا . والرفض القاطع لمفهوم الزمن السكنوي البدائي . واتجاه ثانوي ، يمثل العلاقات التي يقيمها جميل الفران مع شلة من المثقفين في بغداد . هنا نكتشف ضرورة التغيير من خلال التخبط امام اكتشاف طرق هذا التغيير . وهنا يأتي المثال الثقافي العقلاني ليتحد مع ضرورة اجتماعية ملحة ، يمثلها تحرك الطلاب ، ومحاولة المثقفين الاندماج بالحركة الاجتماعية بطرائق واساليب مختلفة . وحين نصل الى حركة الفشل ويكتشف المثقف الانتحار فانه يتردد الى الانتطاعي ليقبله عوض ان يستسلم .

يتوحد هذان العاملان بشكل رمزي في شخصية جميل الفران . فهو الممثل الشرعي الوحيد للهزيمة بوجهها الإيجابي . وهو المثقف الغربي الوحيد الذي يجمع احترام العمل الثقافي بتمثل كامل للثقافة الغربية . لذلك يتزايد دوره كلما توغلت الاحداث في الوصول الى لحظة الانفجار الاجتماعي . فهو حين يصبح اللجأ الوحيد لسلافة بعدما رفضت مشروع تزويجها بالقوة وتمردت عليه يتساءل « ما هي علاقتي بهذه المولدوراما المؤلمة » لكن هذا التساؤل نفسه يقوده الى مزيد من الالتزام بمصير

طالب ، الشاعر قبل وبعد ان يقتل عماد النفوري والد سلافة ورمز الانتطاع في الرواية ، ان هذا التشديد على الصيغة الواحدة في الرواية بأسرها يحمل في الواقع معنيين :

أ - ضرورة جعل العامل الثقافي - السياسي المتمثل بجميل الفران جزءا من العمل الروائي ، مع احتفاظه بالقدرة على الحركة وعلى حمل وجهة نظر الكاتب نفسه في أغلب الاحيان .

ب - افساح المجال امام الشخصيات الاخرى بالتعبير عن نفسها بواسطة الحوار ، الذي يصل الى حدود الكشف عن نوازع الشخصيات الرئيسية في الرواية ، ويحل دائما مكان الحدث الخارجي الذي يجري على اطراف علاقة جميل الفران بالعائلة الانتطاعية التي تشهد تفسخها وانهارها في نهاية الرواية .

ضمن هاتين الوجهتين يتحرك عاملان اساسيان من عوامل التغيير الذي يصفع المجتمع العراقي في اعتاب هزيمة ١٩٤٨ .

العامل الاول هو فلسطين ، بكل ما تمثله من وقع الهزيمة على مجتمع لم يتخلص بعد من السيطرة الاستعمارية . فلسطين حاضرة هنا في ذكرياتها ، ودلالاتها على استحالة المصالحة مع الغرب الامبريالي « لقد سرقوا مسيحنا ورفسوننا في اسناننا » كما يقول جميل الفران للكاهن . وتتحول فلسطين الى رمز للهزيمة العربية الشاملة . هنا لا يأخذ هذا الرمز مدلولاً سياسياً فقط ، بل يتحول الى رمز اجتماعي . ضرورة التخلص من العادات والتقاليد التي تمنع مسيرة التقدم الاجتماعية . لذلك تأتي ليلي - خطيبة جميل في فلسطين - من بين انقراض بيتها الذي هدمه الصهاينة ، تخرج من ثيرها لتتحول الى رمز اجتماعي كامل : « تلك الليلة حلقت انني رايت ليلي مرتدية عباءة سوداء كبنات بغداد ، كنت اتعارك معها يائسا طوال الليل . حاولت ان انزع مباءتها ، ولكنها رفضت ان تنتزع . حاولت المرة تلو المرة الا ان الثوب الاسود تثبت بجسدها بعناد . فضحكت . فضحكت كما كان من دأبها دائما ان تضحك قبل ان يضع لغم الديناميت اليهودي حدا لضحكها وضحكي » . يتحرك هذا العامل في خلفية الرواية ، بوصفه رمزا صارخا على ضرورة